

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : نشدتك الله ا هل حدثت نفسك حين اشرفت على القوم انه ليس فيهم خير منك؟ فقال اللهم نعم. وفي الحديث: من قال إني مؤمن فهو كافر، ومن قال إني عالم فهو جاهل، ومن قال إني في الجنة فهو في النار... وعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر الصديق رضي الله تعالى دعاءً قال، قل فيه: اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم... واستغفرك لما لا أعلم. وجاء في الخبر الشريك في أمتي أخفى من ذييب النمل على الصفا... وكان من دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم : إني استغفرك لما علمت وما لم أعلم. فقيل له اتخاف يا رسول الله؟ قال وما يؤمنني والقلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقبها كيف يشاء... وقال الله تعالى ويذا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ، قيل عملوا أعمالاً ظنوا أنها حسنة، فلما كان عند الحساب والميزان وجدوها سيئات. وقيل كانت هذه الآية مكالمة العابدين. وقيل في معنى قوله تعالى وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً، قيل صدقاً لمن مات على الإيمان، عدلاً لمن مات على الشريك، كقوله تعالى إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية ، وقال سبحانه ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون ، وقال ينالهم نصيبهم من الكتاب وإن لم يفهم نصيبهم غير منقوص، وقال والله عاقبة الأمور، وقال لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله، فالاستثناء في الإيمان هو من الإيمان، والاستثناء في كل شيء من علامة الأولياء، والإشفاق من الشريك والتفاق هو من مزيد الإيمان، لتلا يسكن العبد إلى شيء، ولا يترك نفسه بشيء. وقال سترى السقطى لو أن رجلاً دخل إلى بستان فيه من جميع الأشجار، عليها من جميع الأطيوار، فخاطبه كل طير منها بلغة، فقال السلام عليك يا ولي الله، فسكنت نفسه إلى ذلك، كان أسيراً في أيديها.

الفصل الخامس والثلاثون

في فضائل أهل السنة والطريقة وطرق السلف من الأئمة

السنة اسم من أسماء الطريق، وهو اسم للطريق الأقوم. يقال طريق وطريقة، وسنة وسنة، وحجة ومحجة، فمن فضائل السنة وطريق أهلها التقلل من الدنيا في كل شيء، والقناعة من الله تعالى بأدنى شيء، والتواضع لله بكل شيء. وفي الخبر فضل العبادة التواضع. وروينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: أربع لا يوجدن إلا بعجب: التواضع وهو أول العبادة، والصمت، وذكر الله تعالى، وقلة الشيء... وأعلم أن التواضع يظهر بمعان خمسة:

بالقول، والفعل، والزىء، والأثاث، والمنزل. يكون فى المؤمن بعضها، فمن كملت فيه فهو متواضع. والكِبْر ضد التواضع، وهو يظهر أيضاً بأضداد هذه الخمسة، يبتلى المؤمن ببعضها ويعافى من البعض، فمن كملت فيه فهو متكبر، وحقيقتها فى القلب، وظاهرها بالأفعال والأقوال.

ثم الورع عن الشبهات والمشكلات من العلوم والأعمال، أن يُقدِّم عليها بنطق أو عمل، ولا يعتقد نفيها ولا إثباتها خشية أن يكون معتقداً الباطل أو نافياً لحق، بل يكون اعتقاده فيها تسليماً لله عز وجل، ويقول أمنت بحقائقها عند الله تعالى، فذلك تعبد من الله عز وجل للمؤمنين فيما تشابه من الأمور، أن يسكتوا أو يسلموا، وبذلك وصف الراسخين فى العلم، وأقسم بنفسه على نفي إيمان من لم يسلم تسليماً، وجعل التسليم مزيد الإيمان فى قوله تعالى ومازادهم إلا إيماناً وتسليماً. وفى الخبر: إنما الأمور ثلاثة: أمرٌ استبان رشده فاتبعه، وأمرٌ استبان غيه فاجتنبه، وأمرٌ أشكل عليه فكله إلى عالمه. وكذلك ابن مسعود يقول: إن لهذا القرآن مناراً كمنار الطريق، فمعرفة من فاعملوا به، ومالم تعلموه نكلوه إلى عالمه. وكان أيضاً يقول: أنتم اليوم فى زمان خيركم فيه المسارع، وسيأتى عليكم زمان يكون خيركم فيه المتبين، يعنى لوضوح الحق فى القرن الأول، ولدخول الشبهات فى زماننا هذا فصار الحق غامضاً، فكان خيرُ الناس اليوم المتثبت بالورع، كما أخبر أن خيرهم يومئذ المسارع بالفضل. ومما يدلك أن الإيمان هو التسليم، كما أن الإيمان هو التصديق أن فى قراءة بعض التابعين، منهم جعفر بن محمد، وقد روينا عن أبى جعفر محمد بن على، أنهما قرأاً واجعلنا مسلمين لك، وقرأ أيضاً الذين آمنوا بآيتنا وكانوا مسلمين، فلولا أنهما بمعنى واحد لم يجز أن يخالفوا المعنى فى المقروء. وكذلك قال رسول الله صلى عليه وسلم فى الأمر المتشابه، الذى يشبه الحق من جهة، ويشبه الباطل من جهة لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، ولكن قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم. هذا لأن الله سبحانه وتعالى أنزل التوراة فى حق، ثم أخبر أنهم قد حرقوا فاحتمل أن يكون ما يخبرون به المؤمنون مما أنزل الله تعالى فلا يحل التكذيب به، ولا اعتقاد نفيه، واحتمل ما يخبرون به المؤمنون أنهم حرقوا، فلا يحل قبوله، ولا اعتقاد ثبوته، فأمرهم النبى صلى عليه وسلم بإيقاف ذلك، والإيمان بما أنزل الله تعالى جملة، فإن كان ما أخبروهم حقاً دخل فيه، وإن كان باطلا لم يضرهم، فالمسلم هو الذى يسلم مالم يظهر دليله فى العقل، لأجل القدرة والسنة والنقل،

كما أن المؤمن هو الذى يصدق بما لم يظهر بمشاهدة العين الإيمان بالغييب ، لأن العقل بصره القلب ، كالعين بصر الجسم ، وقد قال النبى صلى عليه وسلم : رفع القلم عن المجنون حتى يعقل كما قال الله تعالى ليس على الأعمى حرج ، ثم ترك ما لا يعنى بما قد كُفِيَ وما لم يكِل إليه من القول والفعل ، لأن الدخول فيما لا يعنى هو التكلف المنهى عنه ، الذى أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الأتقياء من أمته براء منه ، وهو يشغل ويقطع عما يعنى ، وفيما يعنى شغل عما لا يعنى لكل فطن عاقل ، وهو أصل الحكمة فيما أخبر به لقمان لما سُئِلَ أنى أوتى الحكمة ، قال بشيئين لا أتكلف ما كُفيت ، ولا أضيع ما كلفت فهذا شئ لا يضر جهله ولا ينفع فعله ، ولأنه شئ كتب عليه لم يكن له فيه فضل وإن سُمع منه وظهر به ، ولم يكن له فيه مزيد ، ولا لغيره نفع

ثم كف الأذى فإن ذلك من الورع وكان سهل رحمه الله تعالى يقول : كف الأذى كسب العقل ، واحتمال الأذى كسب العلم ، والنصيحة للخلق والرحمة لهم كسب الإيمان .. ومن العمل فى قطع ما قد اعتاد من عاجل حظوظ النفس مما يقطعه عن العمل لأجل الآخرة ، وإعمال النفس وإجهادها ، وأن لا يكون لها معتاد من شهوة تعود على النفس منه منازعة ، فإن العادة جند غالب ، لأجلها تعذرت التوبة ، ولغلبتها رجع العبد عن الاستقامة ، وهى باب من أبواب الهوى ، إلا فيما أمر به العبد أو نُدب إليه قال أبو سليمان الداراني إن قَدِرْتَ أن لا يكون لك وقت معتاد فى الأكل تنازعك نفسك إليه فافعل وقال لأن أترك لقمة من عشانى أحبُّ إلى من قيام ليلة ، أى لنقص النفس من المعتاد ، والتقلل أيضاً وقال أيضاً ترك شهوة من شهوات النفس أنفع للقلب من صيام سنة وقيامها . هنا كله خشية إيلاف العادات ، فتنازع النفس إلى الإلف ، فلا يمكن ضبطها لغلبة الوصف . ثم حُسن الصبر على ما أمر به ، وحُسن الصبر عما نُهى عنه ، فإن ذلك من أفضل الأعمال ، وله فضائل المزيد والكمال وفى حديث أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : اتقِ المحارم تكن من أعبد الناس ، وفى لفظ آخر تكن من أروع الناس ومن أحسن ما سمعته من عظيم المثوبة فى الصبر عن المعصية . كما حدثونا فى الإسرائيليات ، أن رجلاً تزوج امرأة من بلدة وكان بينهما مسيرة شهر ، فأرسل إلى غلام له من تلك البلدة ليحملها إليه ، فسار بها يوماً ، فلما جنَّ الليل أتاه الشيطان فقال له : إن بينك وبين زوجها مسيرة شهر ، فلو تمتعت بها ليالى هذا الشهر إلى أن تصل إلى زوجها فإنها لا تكره ذلك ، وتثنى عليك عند سيدك فتكون أحظى لك عنده ، فقام الغلام يصلى فقال : يارب إن

عدوك هذا جاني فسوّل لي معصيتك وإنه لا طاقة لي به في مدة شهر ، وأنا أستعيزك عليه يارب ، فأعذني عليه ، واكفني مؤنته . فلم تزل نفسه تراوده ليلته أجمع وهو يجاهدها حتى أسحر ، فشد على دابة المرأة وحملها وسار بها ، قال : فرحمه الله تعالى فطوى له مسيرة شهر ، فما برق الفجر حتى أشرف علي مدينة مولاة ، قال : وشكر الله تعالى له هربه إليه من معصيته فنبأه فكان نبياً من أنبياء بني إسرائيل .

ثم إعداد العدة لما يستقبل إذا كان ذلك من مريد السعي للآخرة ، والشغل بالنفس والإقبال عليها دون الناس ، فقد وجب ذلك ، والزهد في فضول الشهوات واجتناب كثير من الشبهات ، فقد افترض ذلك وقلة الذكر للناس ولأموار الدنيا ، فقد حُسن ذلك ، ومنه غفلة وقسوة للقلب ، وكثرة الذكر لله تعالى والتذكير به ، وذكر آياته ونعمائه ، وحُسن الثناء عليه والمدح له ، وقد كان بعض العلماء يقول من جالسنا فليجتنب ذكر ثلاث خصال وليقض فيما يشاء . يجتنب ذكر الناس فإنهم داء ، ويجتنب ذكر الدنيا فإنها قسوة ، ويجتنب كثرة الطعام فإنها شره وقال عالم آخر من جالسنا فلا يذكر إلا الله وحده ، فإن كان لابد من ذكر غيره فليذكر الآخرة ، وليذكر الصالحين وكان سهل رحمه الله تعالى ورضي عنه يقول : السنة ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وأول السنة الزهد في الدنيا ، لأنهم كانوا زاهدين .. وكذلك جاء الخبر في وصف الفرقة الناجية : من كان على ما أنا عليه وأصحابي .. فقد كانوا على هذه الأوصاف التي ذكرناها فمن كان على ذلك فهو على السنة فهذه فضائل السنة ، وهو مزيد الإيمان وحسن اليقين .

ذكر عرى الإيمان وجمل الشريعة

قال الله جل ثناؤه وصدقت أنبأؤه ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها فالشريعة اسم من أسماء الطريق ، وهو اسم الطريق الواضح المستقيم الواسع ، وهو وصف لطريق جامع لجوامع المعاج كلها ، كأنه طريق يستوعب ويجمع سائر الطرق . وللطريق أسماء كثيرة ، منها الصراط المستقيم ، والسبيل ، والمنهاج ، والمحجة ، والمنسك وجاء من اشتقاق هذا اللفظ أربعة أسماء شارع ومشرعة وشريعة وشريعة ، وهو اسم لأوسعها وأوعبها لجميع الطرق ، فالشريعة تشمل على اثنتي عشرة خصلة هي جامعة لأوصاف الإيمان ، أول ذلك الشهاداتان وهي الفطرة ، والصلوات الخمس وهي الملة ، والزكاة وهي الطهارة ، والصيام .

وهو الجُنَّة ، والحجج وهو الكمال ، والجهاد هو النصر ، والأمر بالمعروف وهو الحُجَّة ، والنهي عن المنكر وهو الوقاية ، والجماعة وهي الألفة ، والاستقامة وهي العصمة ، وأكل الحلال وهو الورع ، والحب والبغض في الله وهو الوثيقة ، قد روينا بعض هذه الخصال عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد جاء نحوها عن ابن عباس وابن مسعود رضى الله تعالى عنهما .

ذكر شرط المسلم الذي يكون به مسلماً

لا يكون المسلم معتقداً البدعة ، ولا مقيماً على كبرية ، ولا آكل الحرام ، ولا طاعناً على صالح السلف ، ويكون كافاً اللسان واليد عن أعراض المسلمين وأموالهم ، ويكون ناصحاً لجميع المسلمين مشفقاً عليهم ، يستره ما يسترهم ، ويسوءه ما يسوؤهم ، لاسيما لأئمتهم ، داعياً لجملتهم ، ويكون مخلصاً لأعماله كلها لله تعالى . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم : والذي نفسى بيده ، لا يسلم عبدٌ حتى يسلم قلبه ولسانه ، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه . وروى عنه ثلاث لا يفيل عليهن قلب مسلم : إخلاص العمل لله تعالى ، ومناصحة ولاة الأمر ، ولزوم الجماعة فإن دعوتهم تحيط من ورائهم ، ومن اجتمعت فيه هذه الخصال في زماننا هذا فهو من أولياء الله عز وجل ، وهذا أول ولاية ، وأول نظرة من الله تعالى حامية عاصمة راحمة . وكتب عمر بن عهد العزيز إلى سالم بن عهد الله : اكتب إلى بسيرة عمر رضى الله تعالى عنه في الناس ، فإنني أحب أن أسير بها ، فكتب إليه : أما بعد ، فإنك لست في زمان عمر ، ولا لك رجال كرجال عمر ، فإن عملت في زمانك هذا ورجالك هؤلاء بسيرة عمر ، فأنت خيرٌ من عمر رضى الله تعالى عنه .

ذكر حسن إسلام المرء وعلامات محبة الله تعالى له

من حسن إسلام المرء أن يكون محباً للخير وأهله ، مجانباً للشر وأهله ، مسارعاً إلى ما تُدب إليه أو أمر به إذا قدر عليه ، حزينا على ما فات من ذلك إذا أعجزه ، تاركاً لما لا يعنيه من الأقوال والأفعال ، بريئاً من التكلف وهو اجتناب ما لم يؤمر به ولم يُندب إليه من ترك وفعل ، مصلحاً للخمس في جماعة إذا أمن الفتنة وسلم له دينه ، مجتنباً للغيبة ولذكر الناس ، يحب للكافة ما يحب لنفسه ، ويكره لهم ما يكره لنفسه ، مسارعاً إلى الخيرات ، مسابقاً إلى أعمال البرِّ والقربات ، طويل الصمت ، لين الجانب ، ذليلاً للمؤمنين ، عزيزاً على المتكبرين ، لا يمارى في الباطل ، ولا يدهان في الدين ، ولا يبغض على شئ من الحق وإن كان عليه ، أو من أبعد

الناس منه ، ولا يحب على شئ من الباطل وإن كان له أو من أقرب الناس إليه ، كارهاً للمدح
 ممن يحبه ، قائلًا للنصح ممن يبغضه ، يكون المدح والذم يجريان من قلبه مجرى واحدًا ، صدوقًا
 فيما يضره ، غير متصنع بما يستعجل نفعه ، سريره أفضل من علانيته ، محتملاً لأذى الخلق ،
 صابراً على بلائهم ، منفرداً بحاله عنهم ، تاركاً لكثير من مجالسهم واجتماعهم ، خشية دخول
 الشبهات عليه ، وخورقاً من تغيّر قلبه له ، ومن اجتمعت فيه هذه الخصال فى زماننا هذا فهو من
 المريدين للأخرة ، وهذه ولاية ثانية ونظرة ثانية ، ويقال إن أبدال كل قرن على قدر زمانهم ، وفى
 كل قرن سابقون ومقرّبون .

وقال بعض أهل التفسير فى قوله تعالى { لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ } ، قال لتركبن فى كل قرن
 فى طبقة من الناس على حال لم يكونوا عليه . وأكثر ما قيل فى القرن مائة سنة ، وأقل ما قيل
 فيه أربعون ، وأوسط ذلك وأعدله وأشبهه بحمل الأحاديث والأخبار فيه أن القرن سبعون سنة ،
 وهو قول على رضى الله عنه ، لأن رأس المائتين تمام ثلاثة قرون من المبعث ، ونحن الآن فى القرن
 السادس من أول سنة أربعين وثلاثمائة ، وآخره سنة عشر وأربعمائة ، ويقال إن الشمس تطلع من
 المغرب بعد القرن السابع وهو رأس الثمانين وأربعمائة . وعلى قول من قال القرن مائة سنة تطلع
 بعد سبعمائة سنة .

ذكر حق المسلم على المسلم

وهو وجوب حرمة الإسلام على المسلمين ، وذلك عشر خصال مجموعة من ستة أحاديث :
 حديث على رضى الله عنه : للمسلم على المسلم ست خصال واجبة ، وحديث أبى أيوب الأنصارى :
 حق المسلم على المسلم ست خصال ، إن ترك منها شيئاً ترك حقاً واجباً عليه ؛ وحديث الهراء بن
 عازب : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبع ، ونهانا عن سبع ؛ وحديث ابن مسعود :
 للمسلم على المسلم أربع خلال واجبات ؛ وحديث سعد وأبى هريرة فى معنى ذلك ؛ وحديث أنس :
 أربع من حق المسلم عليك - إلا أنه ذكر غير ذلك فاختلفت الألفاظ فى الخصال وانفتحت المعانى .
 وذكر بعضهم فى حديثه ما لم يذكره الآخر ، فجمعنا اختلافهم وعدد جمل الخصال فكانت عشرة ،
 إلا ما رواه أنس بن مالك رضى الله عنه فإنه حديث غريبٌ مؤكّدٌ للخصال وزائدٌ عليها فى الألفاظ
 نذكره بعدها .

فأما الخصال العشر التى كثرت الأخبار بها فهى : أن يسلم عليه إذا لقيه ، ويحييه إذا

دعاه ، ويُسَمِّتُهُ إِذَا غَطَسَ ، وَيَعُودُهُ إِذَا مَرَضَ ، وَيَشْهَدُ جَنَازَتَهُ إِذَا مَاتَ ، وَيَبْرُقُ قَسْمَهُ إِذَا أَقْسَمَ عَلَيْهِ ، وَيَنْصَحُ لَهُ إِذَا اسْتَنْصَحَهُ ، وَيَحْفَظُهُ بظَهْرِ الْغَيْبِ إِذَا غَابَ عَنْهُ ، وَيُحِبُّ لَهُ مَا يَحِبُّ لِنَفْسِهِ ، وَيَكْرَهُ لَهُ مَا يَكْرَهُ لِنَفْسِهِ . فَأَمَّا حَدِيثُ أَنَسٍ فَرَوَيْنَا عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ أَبِي زَيْدٍ عَنْ أَبِي بَرٍّ عَنْ عِيَّاشٍ عَنْ أَنَسٍ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَرْبَعٌ مِنْ حَقِّ الْمُسْلِمِ : أَنْ تَعِينَ مُحْسِنَهُمْ ، وَأَنْ تَسْتَغْفِرَ لِمُذْنِبِهِمْ ، وَأَنْ تَدْعُوَ لِمُذْبِرِهِمْ ، وَأَنْ تُحِبَّ تَانِهِمْ . فَهَذِهِ الْخِصَالُ دَاخِلَةٌ فِي تِلْكَ الْخِصَالِ وَجَامِعَةٌ لَهَا فِي مَعْنَى النَّصِيحَةِ لِأَخِيكَ ، وَفِي أَنْ تُحِبَّ لَهُ مَا تَحِبُّ لِنَفْسِكَ . وَقَدْ كَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يُؤَكِّدُ هَذَا الْمَعْنَى خَاصَّةً لِلْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ ، وَيَفْرُضُهُ فَرَضَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ ، وَيَفْسِرُ بِهِ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ { رَحِمَاءٌ بَيْنَهُمْ } يَعْنِي مَتَوَادِينَ بَيْنَهُمْ ، يَدْعُو صَالِحَهُمْ لِصَالِحِهِمْ إِذَا نَظَرَ الصَّالِحَ إِلَى الصَّالِحِ مِنْ أُمَّةٍ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُ فِيمَا قَسَمْتَ لَهُ مِنَ الْخَيْرِ ، وَثَبَّتْهُ عَلَيْهِ وَانْفَعْنَا بِهِ ، وَإِذَا نَظَرَ الصَّالِحَ إِلَى الصَّالِحِ مِنْ أُمَّةٍ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : اللَّهُمَّ اهْدِهِ وَتُبَّ عَلَيْهِ وَاغْفِرْ لَهُ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ هَذِهِ الْآيَةُ مِنْ حَلَالِكُمْ وَحَرَامِكُمْ .

فهذه الخصال المذكورة جامعة مختصرة في حُرْمَةِ الْمُسْلِمِينَ وَوَجُوبِ حَقِّ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ ، لَا عِذْرَ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ فِي تَرْكِهَا إِلَّا مَنْ عَذَّرَتْهُ السُّنَّةُ وَيَشْهَدُ لَهُ الْعِلْمُ ، وَيَعْضُهَا أَوْكَدُ مِنْ بَعْضٍ ، وَأَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَقْوَمُهُمْ بِهَا وَأَسْرَعُهُمْ إِلَيْهَا ، قَدْ كَثُرَتْ بِهَا الرِّوَايَاتُ ، وَقَدْ كَانَ بَعْضُ السَّلَفِ تَرَكَوْا مِنْهَا ثَلَاثَةً . إِبْجَابَةُ الدَّعْوَةِ ، وَعِيَادَةُ الْمَرْضِيِّ ، وَشَهَادَةُ الْجَنَائِزِ ، إِلَّا أَنْ هُوَ لَا اعْتَزَلُوا النَّاسَ أَصْلًا وَكَانُوا أَحْلَاسَ بِيوتِهِمْ . وَقَالَ سَهْلٌ مَا أَعْلَمُ شَيْئًا أَشَدَّ مِنْ حَقُوقِ النَّاسِ . وَكَانَ يَقُولُ مِنْ كَفِّ أَذَاهُ عَنِ الْخَلْقِ مَشَى عَلَى الْمَاءِ . وَقَالَ أَبُو يَزِيدَ وَغَيْرُهُ بِغِيَةِ الْعُقْلَاءِ السَّلَامَةُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ، وَمَنْ أَرَادَ السَّلَامَةَ مِنَ اللَّهِ فَلْيَسْلَمْ النَّاسَ مِنْهُ ، فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَسْلَمَ النَّاسَ مِنْهُ فَلْيَبْعُدْ عَنْهُمْ وَلِبَعْضِهِمْ فِي مَعْنَاهُ :

النَّاسُ بَحْرٌ عَمِيقٌ وَالْبَعْدُ مِنْهُمْ سَلَامَةٌ
وَقَدْ نَصَحْتِكَ فَاَنْظُرْ لَا تَدْرِكُنْكَ نَدَامَةٌ

وقد رويانا عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه اتقوا الله واتقوا الناس . وعن ابن عباس مثلها لولا مخافة الوسواس لم أجالس الناس ، وقال مرة وهل يفسد الناس إلا الناس . وقال بعض السلف كلما كثرت المعارف كثرت الغرما ، وكلما أطالت الصحبة تؤكدت الحقوق .

وقال بعض العلماء من عرف نفسه استراح ، ومن عرف الناس تعنى ، وقد قيل فى معنى قوله عليه الصلاة والسلام مداراة الناس صدقة ، قال مداراتهم فى العلوم ومفارقتهم فى العقول ، وفى أحد الوجوه من قوله تعالى { ادفع بالتي هي أحسن } ، قال هى المداراة . وفى الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من أعطى حظه من الرفق أعطى حظه من خير الدنيا والآخرة ، ومن منع حظه من الرفق منع حظه من الدنيا والآخرة .

ذِكْرُ سُنَنِ الْجَسَدِ

وفى الجسد اثنتا عشرة سنة ، وذلك مأخوذ من ثلاثة أحاديث متفرقة ، منها حديث جبريل عليه السلام حين استبطأه النبى صلى الله عليه وسلم بالوحى ، خمس منها فى الرأس وهى المضمضة والاستنشاق والسواك وقصّ الشارب وفرّق شعر الرأس ، ومنها سبغ فى الجسد وهى الحتان والاستحذاء وانتفاض الماء وهو الاستنجاء وتنفى الرّبط وتقليم الأظافر وغسل البراجم وتنظيف الرواجب ، فأما الهراجم فهى معاطف ظهور الأتامل ، فلم تكن العرب تكثر غسل ذلك لتركها غسل أيديها عقيب الطعام ، فكان يجتمع فى تلك المكاسر الوسخ ، فأمرؤا بغسلها ، قال أبو هريرة وغيره من أهل الصفة : كنا نأكل الشواء ، ثم تُقام الصلاة فندخل أصابعنا فى الحصباء ، ثم نفرکہا فى التراب ونكبّر . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : ما كنّا نعرف الاثنان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنما كانت مناديلنا بواطن أرجلنا . وكنا إذا أكلنا العُمُر مسحنا بها . ويقال أول ما ظهر من البدع بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع : المناخل ، والأشنان ، والموائد ، والشبّع . فهذه كلها فى شأن الجوف ، وهو شرّ وعاء مجوف . وأما الرواجب فهى جمع راجبة وهى واحدة الأتامل . ولم تكن العرب يتفق لها الغلمان فى وقت فيقصون أظافرهم ، فوفقت لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لقص الأظافر ، وتتنفى الإبط ، وحلق العانة ، أربعين يوما ، إلا أنه أمر بتنظيف ما تحت الأظافر لأنه مجمع التّفث ، وهى الرواجب إلى أن يقصوا أظافرهم . وجاء فى الأثر أن النبى صلى الله عليه وسلم استبطأ الوحى ، فلما هبط جبريل عليه السلام قال له : كيف ننزل عليكم وأنتم لا تغسلون براجمكم ، ولا تنظفون رواجمكم وقُلحاً لا تستاكون . مرُّ أمتك بذلك . ويقال لما تحت الأظافر من الوسخ الأث ، وهو الذى يقال أف وتُف ، فالأف وسخ الظفر ، والتّف وسخ الأذن . وقيل بل التّف كلمة أتباع للمبالغة فى التّأذى بالقذر المؤذى . ومن ذلك قولهم فى الاتبّاع جانع

نائع، وعطشان نطشان. وقيل من هذا قول الله تعالى فلا تقل لهما أفَ أرى لا تُعَبِّها بما تحت الظفر من الوسخ. وقيل لا تؤذهما تأذيك بما تحت ظفرك من الأذى، أو لا تؤذهما بمقدار ذلك.

ذَكَرَ مَا فِي اللَّحِيَةِ مِنَ الْمَعَاصِي وَالْبِدَعِ الْمَحْدَثَةِ

اللحية من تمام خَلْق الرجل، وبها تَمَيَّز الرجال من النساء في ظاهر الخلق. وفي وصف رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه كان كَثَّ اللحية، وكذلك كان أبو بكر، وكان عثمان طويل اللحية دقيقتها. وكان عَلَى رضى الله تعالى عنه عريض اللحية، قد ملأت ما بين منكبيه. ويقال إن أهل الجنة مُرَدُّ إِله هرون أخا موسى عليهما السلام، فإن له لحية إلى صدره، تخصيصاً له وتفضيلاً. وقد روينا من غريب قوله تعالى يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ، قَالَ اللَّحَى، وفيه وجوه كثيرة. وَذَكَرَ عَنْ شَرِيحِ الْقَاضِي قَالَ وَدِدْتُ لَوْ أَنَّ لِي لَحِيَةً بَعِشْرَةَ أَلْفٍ. وقال بعض الأدباء في اللحية خصال نافعة، منها تعظيم الرجل والنظر إليه بعين العلم والوقار، ومنها رفعه في المجالس والإقبال عليه، ومنها تقديمه على الجماعة وتعجيله. وقال أبو يوسف القاضى مَنْ عَظُمَتْ لَحِيَّتُهُ جَلَّتْ مَعْرِفَتُهُ.

وفي اللحية من خفايا الهوى ودقائق آفات النفوس ومن البدع المحدثَة اثنتا عشرة خصلة بعضها أعظم من بعض، وكلها مكروهة. وقد كنا أجملنا ذلك عدداً في باب آفات النفوس، فأما تفسيره فإن من ذلك خضابها بالسواد لأجل الهوى، وتديس الشيبية وخضابها بالحُمْرة والصْفرة من غير نية تشبهاً بالصالحين والقرآء من السنّة، وتبييضها بالكبريت وغيره استعجالاً لإظهار علو السن وستر الحداثة لأجل الرياسة والتعظيم، ليشهد عند الحكام، أو لينفق بذلك حديثه، ويدعى بالسِّنِّ مشاهدة من لم يره، فَعَلَّ ذلك بعض المحدثين وبعض الشهود، وَمِنْ ذَلِكَ نَتْفِهَا أَوْ نَتْفِ الشَّيْبِ مِنْهَا تَغْطِيَةَ لِلتَّكْهَلِ، وَمِنْهَا تَقْصِيصُهَا طَاقَةً عَلَى طَاقَةِ اللَّتْرَيْنِ وَالتَّصْنَعِ؛ وَمِنْ ذَلِكَ النِّقْصَانُ مِنْهَا وَالتَّزْيَادَةُ فِيهَا، وَهُوَ أَنْ يَزِيدَ فِي شَعْرِ الْعَارِضِينَ مِنَ الصَّدُغِ مِنْ شَعْرِ الرَّأْسِ حَتَّى يَجَاوِزَ عَظْمَ اللَّحَى وَذَلِكَ هُوَ حَدُّ اللَّحِيَةِ، أَوْ يَنْقُصَ مِنَ الْعَظْمَيْنِ إِلَى نِصْفِ الْخَدِّ وَذَلِكَ مُثَلَّةٌ وَهُوَ نِقْصَانُ مِنَ اللَّحِيَةِ، وَمِنْ ذَلِكَ تَسْرِيحُهَا لِأَجْلِ النَّاسِ تَصْنَعاً، أَوْ تَرْكُهَا لِأَجْلِ النَّاسِ شَعْبَةً مُفْتَلَّةً مُغْبِرَةً، إِظْهَاراً لِلزَّهْدِ، أَوْ التَّهَاقُوتِ بِالْقِيَامِ عَلَى النَّفْسِ لِأَنَّهُ قَدْ عُرِفَ بِذَلِكَ؛ وَمِنْ ذَلِكَ النَّظَرُ إِلَى سَوَادِهَا عَجْباً بِهَا وَخَيْلاً وَغِرَّةً بِالشَّبَابِ وَفَخْرًا؛ وَمِنْ ذَلِكَ النَّظَرُ إِلَى بَيَاضِهَا تَكْبِيراً بِكِبَرِ السِّنِّ، وَتَطَاوُلًا عَلَى الشَّبَابِ، فَيُجِبُّهُ نَظَرُهُ إِلَيْهَا عَنِ النَّظَرِ

إلى نفسه من تعلّم العلم، وتعلّم القرآن الذى لا يسعه جهله، والسؤال عما يجهله استصغاراً لغيره من الشباب، أو حياءً من شيبه أو استنكافاً منه، فيظن بجهله أن كثرة الأيام التى بيّضت شعر لحيته أعطته فضلاً أو جعلت فيه علماً، ولا يعلم أن العقل غرائز فى القلوب، وأن العلم مواهب من علامّ الغيوب. ومن كانت غريزته الحُمو وطبيعته الجهل كثُرت حماقته كلما كبر، وعظمت جهالته إذا أسنّ. وقد رأينا جميع ذلك فى كثير من الناس وهذا كله مُحَدَثٌ، وهو يضاهى سننّ الجسد الاثنى عشرة فى العدد.

ومما جاء فى جَمَل معانى ما ذكرناه من الكراهة أن رسول الله صلى عليه وسلم قال: حَفُوا الشوارب، واعفوا اللحيّ .. فقله حفوا أى اجعلوها حفاى الشفة أى حولها، لأن حفاف الشيء حوله. ومن ذلك قوله عز وجل "وترى الملائكة حافّين من حول العرش". وكان بعض العلماء يكره حلق الشارب حتى تظهر البشرة ويراه بدعة. وقد كان مالك بن أنس وبعض علماء المدينة يقولون حلق الشارب مُثَلَّة، إنما هو الأخذ منه حتى يبدؤ الإطار، والإطار حروف الشفة من فوق. وفى الحديث لفظة أخرى أحفو الشوارب، والإحفاء هو الاستئصال والاستقصاء. وهو أبلغ من قوله حفوا. ومن هذا قوله عز وجل "إن يسألكم فيها ببعض تبخلوا"، أى يستقصى عليكم. وقد كان كثير من أصحاب رسول الله صلى عليه وسلم يُحْفى شاربِه. ونظر بعض التابعين إلى رجل أحْفى شاربِه فقال ذكّرْتنى أصحاب رسول الله صلى عليه وسلم، قال فقلت هكذا كانوا يحفون شواربهم؟ فقال نعم، وأشد من هذا كالحلق، وليس الإحفاء إلا شبيه به. وقد رويْنَا فى هذا الحديث ثلاثة ألفاظ آخر وهو خذوا من الشوارب فإن رسول الله صلى عليه وسلم كان يأخذ من شاربِه. وروى قصوا الشوارب، وجزوا الشوارب، فهذه الثلاثة بمعنى واحد وهو يقتضى أخذ بعضه وترك البعض، ليست كالأحفاء .

وقال المغيرة بن شعبه نظر إلى رسول الله صلى عليه وسلم وقد عفا شاربى فقال تعال فقصه لى على سواك. فهذا نص من فعله فى أخذ الشارب. وقد رويت لفظة غريبة طرّوا الشوارب طرّاً. والطرّ أن يؤخذ من فوق الشارب ومن تحته حتى يستدق. والطرّ الدقيق المستطيل المستخرج من شيء أكثر منه حتى يُحمَل على وصفٍ بونه أو أصغر منه، ومن هذا سميت الطرّة كأنها مستخرجة من شيء كثير، مجعولة على وصفٍ لطيف. وكان بعض السلف يترك سباليه، وهما طرفا الشارب، ويحفى وسط شاربِه. وروى هذا عن عمرو وغيره. وكذلك

رأيت أبا الحسن بن سالم رحمه الله تعالى يفعله.

فأمّا قوله واعفوا للحى يعنى كُثروها ومن هذا قول الله عز وجل «حتى عَفُوا»، أى كثروا . وفى الخبر أن اليهود يعفون شواربهم ويقصّون لحاهم فخالقوهم وردّ عمر بن الخطاب وابن أبى ليلى قاضى المدينة شهادة رجل كان ينتف لحيته . وتنفّ الفينكين بدعة، وهما جنبتا العنقفة . وشهد رجل عند عمر بن عبد العزيز بشهادة وكان ينتف فينكيه فردّ شهادته . وورد عن رسول الله صلى عليه وسلم النهى عن نتف الشيب، وقال «هو نور المؤمن»، ونهى عليه السلام عن الخضاب بالسواد، قال «هو خضاب أهل النار»، وفى لفظ آخر «الخضاب بالسواد خضاب الكفار» ، وأمر رسول الله صلى عليه وسلم أبا بكر أن يغيّر شيب أبيه وقال جنبه السواد، وقال «هو خضاب أهل النار» . وتزوج رجل على عهد عمر رضى الله عنه، وكان يخضب بالسواد ، فنصّل خضابه وظهرت شيبته، فرفعه أهل المرأة إلى عمر فردّ نكاحه وأوجعه ضربا، وقال غررت القوم بالشباب ودأست عليهم شيبتك . وقال رسول الله صلى عليه وسلم «الصفرة خضاب المسلمين، والحمرة خضاب المؤمنين» . وكانوا يخضبون بالحناء للحمرة ، وبالخلوق والكتّم للصفرة . ويقال أوّل من خضب بالسواد فهوون لعنه الله . وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم يكن فى آخر الزمان قومٌ يخضبون بالسواد كحواصل الحمام لا يريحون رائحة الجنة ... وكان ابن عمر يقول للحلاق أبلغ العظمين فإنهما منتهى اللحية ، يعنى حدّها ، ولذلك سميت لحية لأن حدّها اللحي، فالزيادة على ذلك الحدّ والنقصان منه محدث.

ذكر ما جاء فى فعل بعض ذلك واستجابته

من العلماء من كان يأخذ من لحيته فى المناسك وغيرها، وإن قبض الرجل على لحيته وأخذ ماتحت القبضة فلا بأس ، وقد فعله ابن عمر وجماعة من التابعين واستحسنه الشعبي وابن سيرين، وكرهه الحسن وقتاده ، وتركها عافية على خلقتها أحب إلى ، وقد كان رسول الله صلى عليه وسلم، ثم الصالحون بعده ، يسرحون لحاهم لأجل الدين والسنة، وتظيفاً للطهارة ونزع التفت من القمل وغيره، وإسقاط شعر ميت إن كان هناك . وقد كان من الزهاد من يترك لحيته متفتلة لا يسرحها شغلاً عن نفسه . والصدق بعينه حسن، والصدق فى كل شيء حسن . قال بعضهم رأيت داود الطائى منفتل اللحية ، فقلت يا أبا سليمان لو

سَرَحَتْ لِحَيْتِكَ، فَقَالَ إِنِّي إِذَا لِفَارِغٍ. إِلَّا أَنَّ رَسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَدُهْنُ شَعْرَهُ وَيُرْجِلُهُ غَبًّا وَأَمْرٌ بِذَلِكَ فَقَالَ «وَادَهْنُوا غَبًّا». وَقَالَ ، «مَنْ كَانَتْ لَهُ شَعْرَةٌ فَلْيَكْرِمْهَا» ، وَدَخَلَ رَجُلٌ ثَائِرُ الرَّأْسِ أَشْعَثَ اللَّحِيَةَ فَقَالَ «أَمَّا كَانَ لِهَذَا دِهْنٌ يُسْكِنُ بِهِ شَعْرَهُ» ، ثُمَّ قَالَ «يَدْخُلُ أَحَدُكُمْ كَأَنَّهُ شَيْطَانٌ» . وَقَدْ رَوَيْنَا فِي خَبَرِ غَرِيبٍ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْرَحُ لِحَيْتَهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ مَرَّتَيْنِ، وَفِي خَبَرِ أُغْرَبٍ مِنْهُ قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ بِيَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ ، فَرَأَيْتَهُ يَطَّلِعُ فِي الْحَبِّ لَيْسُوِيٍّ مِنْ رَأْسِهِ وَلِحَيْتِهِ. وَفِي الْخَبَرِ الْمَشْهُورِ أَنَّهُ كَانَ يَمْشِطُ لِحَيْتَهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ، وَأَنَّ الْمِشْطَ وَالْمِذْرَى لَمْ يَكُنْ يَفَارِقُهُ فِي سَفَرٍ وَلَا حَضْرٍ. فَهَذِهِ سَنَةُ الْعَرَبِ الْمَعْرُوفَةُ فِيهِمْ ، وَكَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَيْهَا، وَكَانَتْ مِنْ أَخْلَاقِهِ.

وَقَدْ كَانَ الشَّبَابُ يَتَشَبَّهُونَ بِالْكُهُولِ تَفْضِيلًا لِلْكُهُولِ غَيْرَ عُجْبٍ بِالشَّبَابِ، وَلَا فَخْرٍ بِالْحَدَاثَةِ. وَفِي الْخَبَرِ خَيْرُ شَبَابِكُمْ مَنْ تَشَبَّهَ بِشَيْوُخِكُمْ، وَشَرُّ شَيْوُخِكُمْ مَنْ تَشَبَّهَ بِشَبَابِكُمْ. وَفِي الْحَدِيثِ أَنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللَّهِ تَعَالَى إِجْلَالِ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ. وَقَدْ كَانَ الشَّيُوخُ يَقْدَمُونَ الشَّبَابَ وَيُرُونَ فَضْلَهُمْ بِالْعِلْمِ وَالِدِينِ تَوَاضِعًا وَإِخْبَاتًا لَا تَكْبَرًا وَلَا غُلُوًّا . وَكَانَ عَمْرُو رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ يَقْدَمُ ابْنَ عَبَّاسٍ وَهُوَ حَدَّثَ السَّنَّ عَلَى أَكْبَارِ الصَّحَابَةِ وَيَسْأَلُهُ دُونَهُمْ. وَرَوَى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِ مَا آتَى اللَّهُ تَعَالَى عَبْدًا الْعِلْمَ قَطُّ إِلَّا شَابًا، وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي الشَّبَابِ، ثُمَّ تَلَا قَوْلَهُ تَعَالَى «قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ» ، وَتَلَا قَوْلَهُ سُبْحَانَهُ «إِنَّهُمْ فَتِيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ» ، وَقَوْلَهُ تَعَالَى «وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا». وَقَدْ كَانَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ إِذَا ذُكِرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ قُبُضَ وَلَيْسَ فِي شَعْرِ رَأْسِهِ وَشَعْرِ لِحَيْتِهِ عَشْرُونَ شَعْرَةً بِيضَاءً، فَقِيلَ لِمَ يَا أَبَا حَمْزَةَ وَقَدْ أَسْنَى ، قَالَ لَمْ يُشْنَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالشَّيْبِ، قِيلَ أَوْشَيْنُ هُوَ، قَالَ كَلِّكُمْ يَكْرَهُهُ. وَيُقَالُ إِنْ يَحْيَى بْنُ أَكْتَمٍ وَلِيَ الْقَضَاءُ وَسَنُهُ إِحْدَى وَعَشْرُونَ سَنَةً، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ ذَاتَ يَوْمٍ وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ يَرِيدُ أَنْ يَحْشَمَهُ بِذَلِكَ : كَمْ سَنَ الْقَاضِي أَيْدِيَهُ اللَّهُ تَعَالَى ؟ فَقَالَ مِثْلَ سَنِ بْنِ أَسِيدٍ حَيْثُ وَلَّاهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِمَارَةَ مَكَّةَ وَقَضَاءَهَا، فَأَنْقَضَهُ. وَرَوَيْنَا عَنْ مَالِكِ بْنِ مَعْمُولٍ قَالَ قَرَأْتُ فِي بَعْضِ كُتُبِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَا تَغْرَنُكُمْ اللَّحْيُ فَإِنَّ التَّيْسَ لَهُ لِحْيَةٌ. وَقَالَ بَعْضُ الْأَدْبَاءِ كُلَّمَا طَالَتِ اللَّحْيَةُ تَشَمَّرَ الْعَقْلُ. وَقَالَ أَبُو عَمْرٍو بْنُ الْعَلَاءِ إِذَا رَأَيْتَهُ طَوِيلَ الْقَامَةِ صَغِيرَ الْهَامَةِ عَرِيضَ اللَّحْيَةِ فَاقْضُ عَلَيْهِ بِالْحُمُقِ وَلَوْ كَانَ أُمِيَّةَ بْنِ عَبْدِ شَمْسٍ. وَقَالَ مَعَاوِيَةُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى يَتَّبِعِينَ حُمُقَ الرَّجُلِ مِنْ طَوْلِ قَامَتِهِ، وَعِظَمَ لِحَيْتِهِ

وفى كُنْيته، وتَنقُش خاتمه. وكان إبراهيم النخعي ومثله من السلف يقول عجبت لرجل عاقل طويل اللحية كيف لا يأخذ من لحيته فيجعلها بين لحيتين، فإنَّ التوسط في كل شيء حَمَن. وأنشدت لبعض الظرفاء:

لا تعجبين بلحية * كبرت منابتها طولها
يهوى بها عصف الريا * ح كانها ذنب الحسيلا
قد يدرك الشرف الفتى * يوما ولحيته قليلا

وأنشد لبعض العرب:

لعمرك ما الفتیان أن تنبت اللحي * ولكنما الفتیان كل فتى ندى

ولم يكن الأشياخ يستنكفون أن يتعلموا من الشباب ماجهلوا، ولا يزرون عليهم لصغر سنهم، إذ الفضل بيد الله يؤتية من يشاء، لا مانع لما أعطى الله من صبي أو غيره، ولا مُعطي لما منع الله من كبير أو غيره. وقال أبو أيوب السخثياني إنني أدركت الشيخ ابن ثمانين سنة يتبع الغلام يتعلم منه، فيقال له تتعلم من هذا، فيقول نعم أنا عبده مادمت أتعلم منه. وقال علي بن الحسن من سبق إليه العلم فهو إمامك فيه وإن كان أصغر سنًا منك. وقيل لأبي عمرو بن العلاء أبحسن للشيخ الكبير أن يتعلم من الصغير، فقال إن كانت الحياة تحسن به فإن التعلم يحسن به، فإنه يحتاج إلى العلم مادام حيا. وقال يحيى بن معين لأحمد بن حنبل وقد رآه يمشى خلف بغلة الشافعي رضى الله تعالى عنه، يا أبا عبد الله تترك حديث سفيان بعلو وتمشى خلف بغلة هذا الفتى وتسمع منه، فقال أحمد لو عرفت منه ما أعرف لكنك تمشى من الجانب الآخر، إن علم سفيان إن فاتني بعلو أدركته بنزول. وإن عقل هذا الشاب إن فاتني لم أدركه بعلو ولا نزول. وسمعت أبا بكر بن الجلاء يقول إنني لأرى الصبي يعمل الشيء فاستحسنه فاقتدى به فيكون إمامي فيه، وما رأيت أشد تواضعا منه على علمه وزهده، فأمًا معنى الخير الذي روى لا يزال الناس بخير ما أتاهم العلم عن أكابرهم، فإذا أتاهم عن أصاغرهم هلكوا، فإن ابن المبارك سئل عن معنى ذلك فقال أصاغرهم أهل البدع لأنه لا صغير من أهل السنة ممن عنده علم، ثم قال كم من صغير السن حملنا عنه كبير علم. وقد قيل إن قوله عن أكابرهم يعنى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهذا مواطىء للخبر الآخر لا تزال أمتي بخير مادام فيهم من رآني، وليأتين عليهم

زمان يُطلَب في أقطار الأرض فلا يوجد أحد رأى. كيف وقد جاءت بذلك لفظة ذكرتها لا يزال الناس بخير ما أتاهم العلم عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن أكابرهم، فإذا أتاهم عن أصاغرهم استمعى الكبير على الصغير فهلكوا، أى فذلك خشية أن لا يتعلم منه لما ذكرنا من الحياء والتكبر والاستنكاف. ووجه آخر هذا مجازة عندي على الخبر لا على الظم، لأنه قد جاء فى الأثر وصف هذه الأمة فى أوّل الزمان يتعلم صغارها من كبارها، فإذا كان آخر الزمان تعلم كبارهم من صغارهم، فإذا كان كذلك فهذا تفضيل الأصاغر وتشريف هذه الأمة على سالف الأمم، لأنهم لم يكونوا يحملون العلم إلاّ عن القسيسين والرهبان والأشياخ العباد والزهاد. وأخبر أن هذه الأمة فى آخر الزمان تفضل سالف الأمم فى أول أزمنتهم، بأن يتعلم الكبير من الصغير كما فضّلهم الله تعالى به. فذلك أشد وطأ للخبر الآخر أمتى كالمطر لا يدرى أوله خير أم آخره. ولثله من الشاهد كيف تهلك أمة أنا فى أولها والمسيح ابن مريم صلى الله عليه وسلم فى آخرها. وقد روينا فى الخبر لا تحقروا عبدا أتاه الله تعالى علماً فإن الله تعالى لم يحقره أن جعل العلم عنده. وكان شعبة يقول من كتبتُ عنه حديثاً أو تعلمتُ منه علماً فأنا عبده. وقال مرة إذا كتبت عن الرجل سبعة أحاديث فقد استرقتنى. فأما الخضاب بالسواد فقد يُروى أن بعض العلماء ممن كان يقاتل فى سبيل الله تعالى كان يخضب بالسواد، ولكن لم يكن هذا يخضب به لأجل الهوى وتدليس الشيب، إنما كان يعد هذا من إعداد القوة من العدة لأعداء الله تعالى، بمعنى قول الله عز وجل «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة»، وإظهار الشباب من القوة، وقد رمل رسول الله صلى الله عليه وسلم واضطجع هو أصحابه ليبراهم الكفار فيعلموا أن فيهم جلدا وقوة، ومن صنع شيئاً بنية خالصة صالحة يريد بذلك وجه الله تعالى، وكان عالماً بمذهب له ذهب إليه فهو فاضل فى علمه وفعله، وإن كان ذلك من أدون أعماله لم يتبع أن يستن به فيه، لأننا روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من شر الناس منزلة من يقتدى بسينة المؤمن ويترك حسنته، فأخبر أن للمؤمن سينة، وأن من شر الناس من تأسى بها معذرة لنفسه فى هواها.

باب ما ذكر من نوافل الركوع وما يكره من النقصان منه

قال الله سبحانه وتعالى «ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم»، وروينا عن علي رضي الله تعالى عنه أنه فسره قال ركعتا الفجر. وكذلك فسره قوله تعالى «ومن الليل فسبحه

وإدبار السجود ، قال ركعتا المغرب. وهذا على قراءة من كَسَرَ الألف، فأماً من نصبها فإن معناه أدبار الصلوات أى أعقابها وأواخرها. والتسبيح اسم الصلاة النافلة لكون التسبيح فيها، وتسمى النافلة سُبْحَةً، فَمِنْ سُنَنِ الرُّكُوعِ واستحبابه أدبار الصلوات وقبلها الذى لا استحبابُ ترك شيء منه، وبعضه أؤكد من بعض، سبع عشرة ركعة مجموع من خمسة أحاديث : حديث عَلَى رضى الله تعالى عنه أنه سُنِّلَ عن صلاة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالنهار فقال ست عشرة ركعة، وحديث ابن عمر حفظتُ من رسول الله صلى الله عليه عشر ركعات، وحديث أبى أيوب الأنصارى فى الصلاة قبل الظهر، وحديث أنس بن مالك وعائشة فى الصلاة بعد العشاء الأخرى وفى الوتر، وخبر أم حبيبة الوارد بالفضل من العدد مَنْ صَلَّى فى يومِ اثنتى عشرة ركعة غير المكتوبة بنى الله تعالى له بيتاً فى الجنة، وخبر غريب رواه أهل البيت مواطئاً لبعض ما ذكرناه أن الله تعالى فرض عليكم فى اليوم والليلة سبع عشرة ركعة، وسننتُ لكم مثلها، أول ذلك ركعتا الفجر وهما سنة مؤكدة، وأربع قبل الظهر وهنّ مستحبات مؤثرة فى الاستحباب، وركعتان بعدها وهما سنة، وأربع قبل العصر ، رجاء أن يدخل فى دعوة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وركعتان بعد المغرب وهما سنة مؤكدة، وثلاث ركعات الوتر مؤكدة. فأما حديث عَلَى رضى الله عنه فإنه ذكر من صلاة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شيئاً لم يذكره غيره، أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يصلى الضحى ست ركعات فى وقتين - إذا أشرقت الشمس وارتفعت قام فصلّى ركعتين، وهذا هو الإشراق وهو الورد الثانى من النهار، وإذا انبسطت الشمس وكانت فى رُبْعِ السماء من المشرق، ومثلها حين تكون فى ثلاثة أرباع السماء من صلاة العصر صلى أربعا، وهذا هو الضحى الأعلى والورد الثالث من النهار. والمواظبة على هذه الصلاة بمراعاة هذين الوقتين من عزائم الأعمال وفواضلها. وذكرتُ أم هانئ: أخت عَلَى رضى الله عنه أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يصلى الضحى ثمانى ركعات أطالهنّ وحسنهنّ ، ولم ينقل هذا العدد غيرها. وأما عائشة رضى الله تعالى عنها فإنها ذكرت أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يصلى الضحى أربعا ويزيد ما شاء الله فلم تحُدْ. وقد روينا فى حديث منفرد أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يصلى الضحى ست ركعات. وقد روى أبو أيوب الأنصارى عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شيئاً تفردَ به أنه لم يكن يدع أن يصلى أربعا بعد الزوال وقبل صلاة الظهر، يقرأ فيهن بمقدار سورة البقرة، قال فسأله عن هذه الصلاة، فقال إن أبواب السماء تفتح هذه الساعة ويستجاب الدعاء، فأنا

أحب أن يُرْفَعَ لى فيها عمل صالح. وقد جاء فى حديث أم حبيبة زوج النبى صلى الله عليه وسلم مفسراً من صلى فى يوم اثنى عشرة ركعة غير المكتوبة بنى الله له بيتا فى الجنة، ركعتين قبل الفجر، وأربعاً قبل الظهر، وركعتين بعدها، وركعتين قبل العصر، وركعتين بعد المغرب. ورواه ابن عمر فى حديثه: حفظتُ من رسول الله صلى عليه وسلم فى كل يوم عشر ركعات ... فذكرها، إلا قوله وركعتين قبل الفجر فإنه قال تلك الساعة لم تكن ندخل فيها على رسول الله صلى عليه وسلم، ولكن حدثتني أختي حفصة أنه كان يصلى ركعتين فى بيتها ثم يخرج. وقال فى حديثه ركعتين قبل الظهر ، وركعتين بعد العشاء. وقالت عائشة كان رسول الله صلى عليه وسلم يصلى بعد العشاء الأخيرة أربع ركعات ثم ينام. وقال أنس بن مالك كان رسول الله صلى عليه وسلم يوتر بعد العشاء بثلاث ركعات، يقرأ فى الأولى سَبِّح اسم ربك الأعلى، وفى الثانية قل يا أيها الكافرون، وفى الثالثة قل هو الله أحد. وقد جاء فى خبر أنه كان يصلى بعد الوتر ركعتين جالسا، وفى بعضها متربعا، وفى بعض الخبر إذا أراد أن يدخل فى فراشه زحف إليه وصلى فوقه ركعتين قبل أن يرقد، يقرأ فيهما إذا زلزلت الأرض وسورة الهاكم التكاثر، وفى رواية أخرى وقل يا أيها الكافرون. فإن أضعف العبد هذه السبع عشرة ركعة فجعلها أربعاً وثلاثين يداوم عليها ويجعلها ورده من الصلاة فهو أفضل، وهذا مذهب أهل البيت، واحتجوا فيه بخبر روه عن رسول الله صلى عليه وسلم أنه قال - فرض الله تعالى على أمتى فى اليوم والليلة سبع عشرة ركعة، وسننت لهم مثلها - وإن كان الحفّاظ من أهل النقل يضعفون هذا الحديث إلا أنه قال عليه الصلاة والسلام - الصلاة خير موضوع، فمن شاء أكثر، ومن شاء أقل. وقال بين كل أذان وإقامة صلاة لمن شاء. فإن فعل ذلك وراعاها على ما يرتبه فهو مقارب لما ذكرناه أنفا من السنن . والاستحباب قبل الصلوات الخمس وبعدها ركعتان قبل الفجر، وأربع من الضحى، وأربع قبل الظهر، وأربع بعدها، وأربع قبل العصر، وست بعد المغرب، وأربع قبل العشاء ، وست بعدها، ثم يوتر بواحدة. فهذا حينئذ نحو ما رسمناه وهو مُشْبِهٌ لما نقلنا من الآثار، وليستند إلى الخبر المأثور وإلى فعل أهل البيت. وأكثر ما روى من صلواته بين العشاءين مما نقل عدده ست ركعات. وأكثر ما روى من صلاة الضحى ثمانى ركعات. ومن صلواته بالليل ثلاث عشرة ركعة، إلا حديثا مقطوعا موقوفا على طاوس رواه ابن المبارك أن رسول الله صلى عليه وسلم كان يصلى من الليل سبع عشرة ركعة فهو حديث شاذ ، وسائر الأخبار المسندة عن ابن عباس

ومائشة وميمونة وأم حبيبة إنما هي إحدى عشرة ركعة وثلاث عشرة ركعة. وأستحب أن يصلى العبد قبل كل صلاة أربعاً وبعداً أربعاً، إلا ما لا صلاة قبلها ولا صلاة بعدها، ثم يزيد بعد ذلك ما قسم الله تعالى له، وأن يصلى الضحى ثمانى ركعات ويواظب عليهن، إذا أنشط أطالهن، وإذا أفتقر قصرهن، فإن المداومة على العمل عملٌ ثان وهو من أفضل الأعمال وأحبّه إلى الله تعالى، وإلا اقتصر على أربع يديمهن. ولا أكره أن يصلى قبل المغرب ركعتين بعد غروب الشمس، فقد قال أنس بن مالك كان اللباب من أصحاب رسول الله صلى عليه وسلم يصلون ركعتين قبل المغرب، وكان أبى بن كعب وعبادة بن الصامت وأبو ذر وزيد بن ثابت وغيرهم من أكابر أصحاب رسول الله صلى عليه وسلم يصلونها. وقال عبادة أو غيره كان المؤذن إذا أذن لصلاة المغرب ابتدر أصحاب رسول الله صلى عليه وسلم السوارى يصلون ركعتين. وقال أيضا بعضهم كنا نصلّى ركعتين قبل المغرب، وذاك داخل فى عموم قوله صلى الله عليه وسلم بين كل أذانين صلاة لمن شاء، وقد كان أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى يصليهما فعابهما الناس عليه، وقال مرة لم أر الناس يصلونهما فتركتهما، وقال إن صلأما الرجل فى بيته أو حيث لا يراه الناس فحسن، وذلك أستحب.

الفصل السادس والثلاثون

فى شرح الكبائر التى تحبط الأعمال وتوبق العمال وتفصيل ذلك ومنازل أهلها فيها ومسئلة محاسبة الكفار

قال الله تعالى «إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم»، فاشتراط لتكفير الصفائر من السيئات اجتناب الكبائر الموبقات. وقال صلى الله عليه وسلم الصوات الخمس والجمعة إلى الجمعة تكفر ما بينهن لمن اجتنب الكبائر، وفى لفظ آخر كفارات لما بينهن إلا الكبائر، فاستثنى من كفارات الذنوب الكبائر، فاختلف العلماء من الصحابة والتابعين فى الكبائر من أربع إلى سبع إلى تسع إلى إحدى عشرة فما فوق ذلك، فكان ابن مسعود يقول من أربع، وكان ابن عمر يقول الكبائر سبع، وقال عبد الله بن عمرو من تسع، وكان ابن عباس إذا بلغه قول ابن عمر أن الكبائر سبع يقول هى إلى سبعين أقرب منها إلى سبع، وقال مرة كل ما نهى الله تعالى عنه فهو من الكبائر، وقال هو وغيره كل ما توعد الله تعالى عليه بالنار فهو من الكبائر، وقال بعض السلف كل ما أوجب الحد فى